وزارة الثقافة

يوليسيز التائه

تأليف: محمود زايد

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

يوليسيز التَّائِه

تأليف: محمود زايد

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٦
عن مطبعة الفرنسيسكان في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: محمود زايد
اسم الكتاب: يوليسيز التَّائِه
الطبعة الأولى: ١٩٤٦ عن مطبعة الفرنسيسكان في القدس

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: مأخوذة من النُّسخة الأصليَّة للكتاب

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

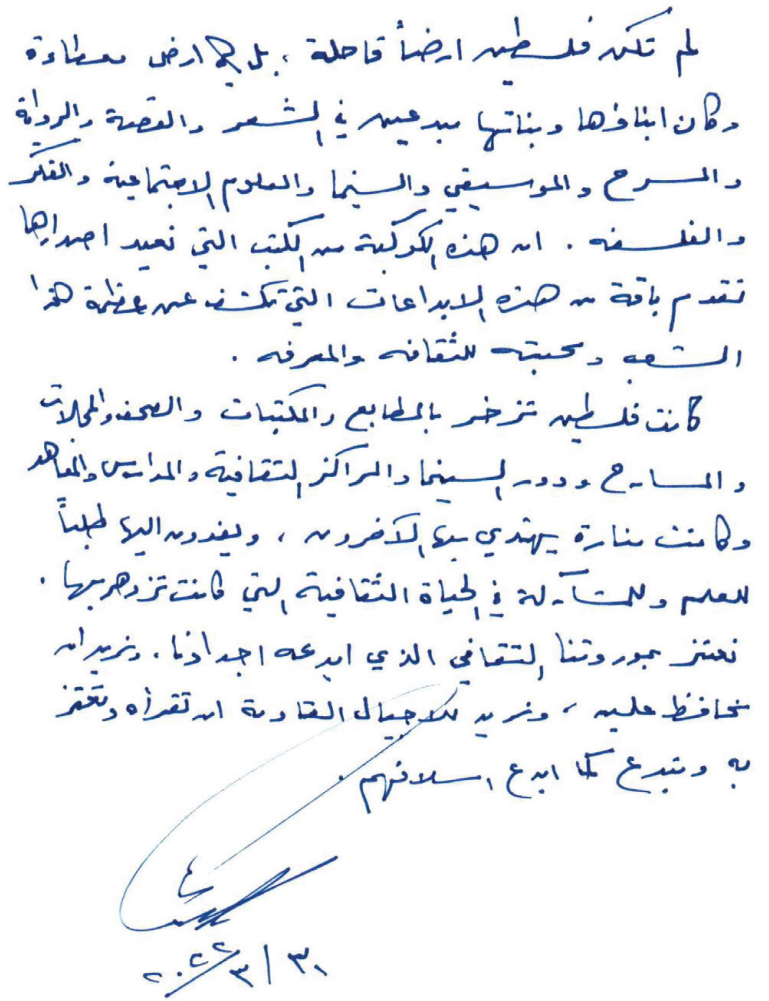

لم تكن فلسطين ارضا قاحلة، بل كانت ارض معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الاخرون، ويقصدونها طلبا للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

يوليسيز التَّائِه

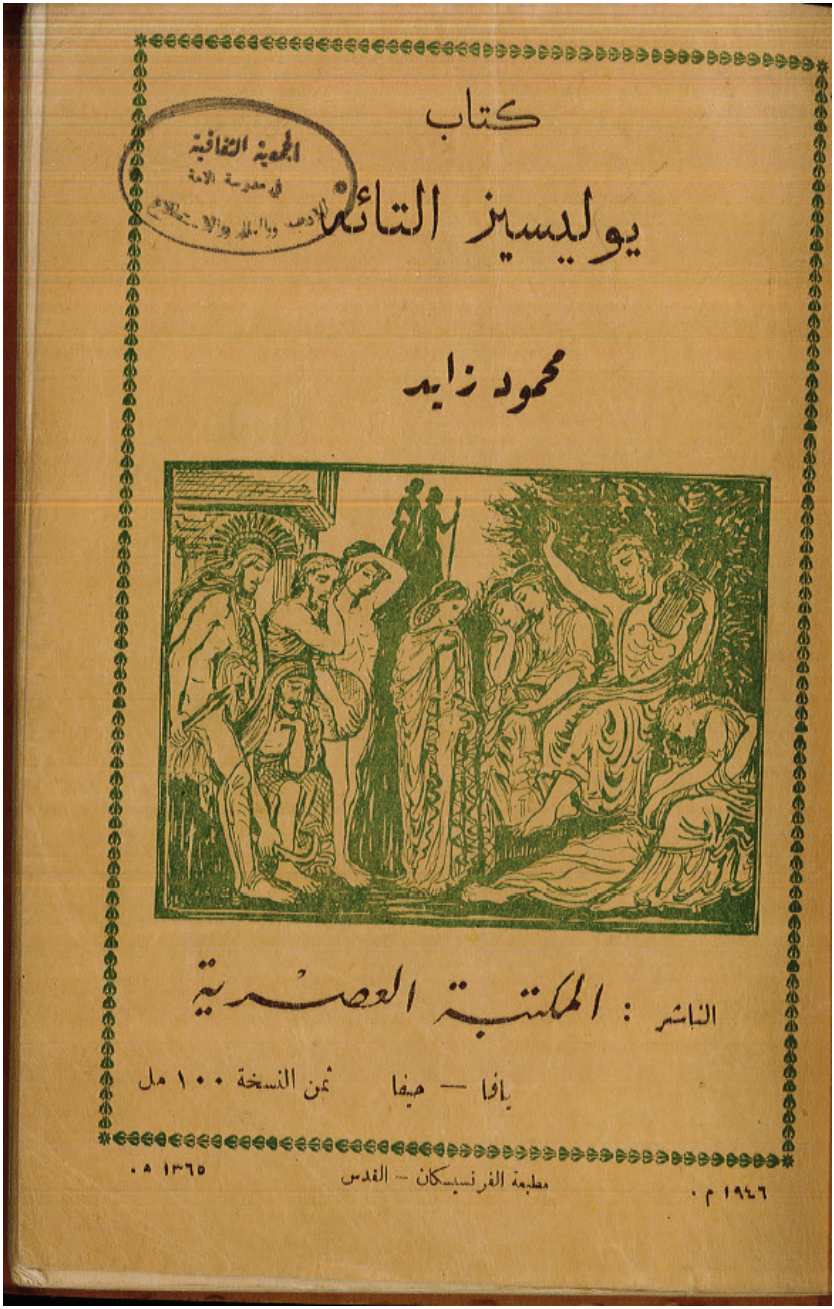

غلاف النُّسخة الأصليَّة للكتاب

مقدِّمة الكتاب

يسرُّني أن أقدِّم للأطفال نموذجًا مختصرًا لمثال خالد من أمثلة الأدب الحيّ، ما المثال إلَّا، الأوديسة، للشَّاعر اليونانيّ، هوميروس.

عاش هذا الشَّاعر في القرنين التَّاسع والثَّامن قبل الميلاد، وقد وضع ملحمتيه؛ الإلياذة والأوديسة للإنشاد في المحافل والمجتمعات، كما هو واضح في الصُّورة التي على غلاف هذا الكتاب.

يعطي هوميروس في الإلياذة صورة خالدةً لوقائع الحرب الطرواديَّة الشَّهيرة، ويصف في الأوديسة رجوع يوليسيز (أوديسوس) إلى بلاده.

وإذا مدحت هوميروس فلن أؤثر فيك بقدر ما تتركه قراءة ملحمتيه فيك من أثر.

وضعتُ الكتاب بتصرُّف، وبدأتُه بذكر الحرب الطرواديَّة بصورة مطوَّلة؛ وذلك لكي يتيسَّر لي أن أعطي الطّفل قصَّة متماسكةً شيّقةً.

وجرَّبت جهدي أن أقلِّل من الأسماء والشَّخصيَّات؛ ساعيًا وراء البساطة البعيدة عن التَّعقيد بالنِّسبة للطِّفل.

وإنّي لأشكر لفضيلة الأستاذ علي أفندي صبري مساعدته القيِّمة، فقد راجع الكتاب قبل طبعه.

المؤلِّف

القسمُ الأوَّلُ

في طروادة[1]

أنا يوليسيز بن لارتيس، أمير إثاكا[2]. أنا الآن شيخ أتجاوز الثمانين من عمري. ومع ذلك فإني شديد الاعتماد على نفسي. ما زلت شجاعًا كما لو كنت شابًا.

ها هي ذي البحار التي حملتني أمواجها عشرين سنة كاملة. هدير أمواجها يطربني. وصفير الرياح

يدوي في أذني. وكأنه يقول لي:

«يا يوليسيز ، أنسيت البحر والحبال والبحارة؟ أنسيت الساحرات والجنيات؟»

يوليسيز

١ تقع على ساحل آسيا الصُّغرى الغربي.

٢ وهي جزيرة صغيرة غربي اليونان؛ وهي شهيرة لأنَّ يوليسيز وُلِد فيها.

لا، لا. لم أنس يوم أن حشدت الأمم اليونانية أساطيلها وأبحرت غربًا نحو مدينة طروادة.

هناك حاصرت الجيوش اليونانية طروادة عشر سنوات وتلك المدينة الجبارة ماضية في عنادها. وجاء ذلك اليوم الرهيب، يوم فتحت المدينة. وإليكم قصة فتحها.

هيلين

كانت تعيش في بلاد اليونان أجمل امرأة في العالم،

واسمها (هيلين). وكان زوجها ملك مقاطعة في بلاد اليونان أحب زوجته حبًا جمًا. (وقد ضرب اليونان بجمالها المفرط المثل، حتى تغنوا بها في كل مكان) لها عينان زرقاوان، وشعر ذهبي لامع تحسبه خيوط شعاع الشمس عند الأصيل، وحوله شريط ذهبي براق.

خرجت هيلين مرة تتمشى في حديقة القصر مع وصيفاتها. وكانت تلبس ثوبا أزرق فضفاضا يجذب البصر. وحدث أن رآها أمير جاء من طروادة لزيارة زوجها، فأعجبه جمالها. وصمم على أن يخطفها وأن يأخذها إلى بلده.

بارس يخطف هيلين

أفـاق زوجهـا في الصبـاح. ولكنـه لم يـر هيلـين، فجـن جنونـه. يـا للعـار! أتـسرق زوجتـه مـن قـصره! لقـد حلـف أن سـينتقم مـن السـارق، وهـو الأمـير (بـارس الطـروادي).

كنـت أنـا أحـد ملـوك اليونـان. اجتمعنـا وقررنـا محاربـة أهـل طـروادة. جمعنـا أسـاطيلنا وأبحرنـا غربًـا ولما علـم الطرواديـون بذلـك، أقفلـوا أبـواب سـور مدينتهـم. فحاصرنـا المدينـة عـشر سـنوات. ولكـن بـدون جـدوى.

الحصان الخشبي

يئـس القُـوَّاد مـن تحطيـم الأسـوار الحجريـة. وبـدأ الجنـود يتذمـرون. ففـراق الأهـل يصعـب عـلى الإنسـان. ورغـب كثـيرون في أن يكفـوا عـن الحصـار، وأن يعـودوا إلى أوطانهـم.

وفي تلـك اللحظـة القاسـية لاحـت لي فكـرة الحصـان الخشـبي. فعـاودني الأمـل في فتـح طـروادة، تلـك المدينـة الحصينـة. جمعـت القـواد في الحـال وقلـت:

«يـا عظـماء بـلاد اليونـان، تعودتـم أن تصـبروا في الحـروب، فانتظـروا مـدة أطـول. فكـرت في أن نصنـع حصانًـا خشـبيًا لـه بـاب جانبـي، في اسـتطاعة عـشرة أشـخاص أن يختفـوا في داخلـه. نضـع الحصـان خـارج السـور، ونتظاهـر بالانسـحاب. فـإذا ابتعدنـا عـن السـاحل خـرج الطرواديـون وأدخلـوا الحصـان في مدينتهـم. ثـم نرجـع ليـلًا،

وننتظـر خـروج الجنـود مـن الحصـان. وعندئـذ يفتحـون أبـواب المدينـة لنـا»

فصفـق الجميـع سرورًا عندمـا سـمعوا كلامـي. وفي الحـال أعـد الحصـان، واختفـى الجنـود فيـه. ثـم انسـحبنا إلى مـكان آخـر لا يـراه أهـل المدينـة. وكنـا ندعـو آلهتنـا أن تنجـح هـذه الحيلـة.

هيلين الجميلة تعود

لم تكـد الشـمس تتـوارى خلـف الأفـق حتـى رجعنـا إلى موضعنـا الأول. ونظرنـا إلى السـور فلـم نجـد الحصـان

فيا لحسن الحظ!

نـزل جنودنـا مـن سـفنهم وقواربهـم بخفـة ونشـاط (وكان يـضيء الظـلام لمعـان السـيوف والـتروس والرمـاح). وتوجهـت الأعـين صـوب السـور الحصـين.

مـر الثلـث الأول مـن تلـك الليلـة وقلوبنـا تخفـق خفقـات سريعـة. ومـا هـي إلا لحظـات حتـى فتـح الجنـود الذيـن خرجـوا مـن الحصـان، أبـواب المدينـة.

مـا أشـد هـول تلـك السـاعة الرهيبـة: انقـض جنودنـا عـلى الأبـواب كالصواعـق. وتسـلق بعضهـم السـور ورمـوا بأنفسـهم داخلـه. وبـدأ القتـال

يشتد في الشوارع والممرات... ثم في البيوت وعلى السطوح.

وانتهت تلك المعركة الدامية. وتركنا الدماء تجري في الشوارع بين البيوت. وصاح أحد جنودنا قائلًا:

«ها هي ذي هيلين الجميلة». ثم تجمع جنودنا وركبوا سفنهم وتوجهوا إلى بلادهم.

في البحر

لو نظرت إلى البحر في تلك الليلة لرأيت السفن على وجهه كالنجوم المتلألئة على أديم السماء. وكان هدير الأمواج يمتزج مع أغاني البحارة، فيبعث في سكون الليل الآمال والأماني العذبة. كان الجميع يغنون وينشدون.

ولا يزال صدى تلك الأغاني يرن في أذني. وكنا نبتعد عن بعضنا تدريجيًا. أما سفينتي فقد قادها البحارة جنوبًا. ولم تمض ساعات حتى ابتعدنا عن إخواننا والأمواج تدفعنا.

وبقينا أيامًا ونحن سائرون إلى حيث لا نعلم، فقد ظهر أننا ضللنا الطريق ووصلنا ظهر أحد الأيام إحدى الجزر. فنزلنا إلى الساحل وجلسنا لنستريح من عناء السفر.

في بلاد العمالقة

وقفت على الساحل أتلفت يمنة ويسرة، فأدركت أن حولنا جزرا أخرى قريبة: جبالها شاهقة، وتتخللها كهوف متباعدة.

تلك بلاد العمالقة. يعيش هؤلاء متفرقين في أنحاء الجزر. يسكنون الكهوف. لا نظام يجمعهم، كل يسير كما يشاء. أجسامهم ضخمة مخيفة، وللواحد منهم عين واحدة في جبينه.

ولما كنت أحب المخاطرات، صممت على أن أزور أحد العالقة في بيته. وكنا نسمع أصواتا مدوية كالرعد، آتية من جزيرة قريبة. فركبنا سفينتنا واتجهنا نحوها.

وكنا كلما اقتربنا من الشاطئ، ارتفعت أصوات العمالقة. فنزلت إلى الشاطئ، مع اثني عشر رجلًا من أصحابي وتسلقنا الجبل نحو كهف في سفحه. وأخذنا معنا زقًّا مملوءا بالخمر وكمية من الخبز. وبقي أصحابنا على الشاطئ.

دنونا من الكهف، فإذا هو مملوء بالماعز ذي الشعر الكثيف. وكان حجم الواحد منها ستة أضعاف حجم الخروف الذي نعرفه. ورأينا أوعية اللبن والحليب مصفوفة. ولما دخلنا الكهف، ذعر أصحابي ورغبوا في الرجوع. غير أني شجعتهم وجلسنا ننتظر قدوم العملاق.

العملاق المفترس

صرت أهـون الأمـر عـلى رجـالي. وذكـرت لهـم أن أبطـال اليونـان لا يخشـون المغامـرات والمخاطـرات. وليتنـي لم أفعـل ذلـك. فقـد تمنيـت حـين دخـل العمـلاق، لـو هربـت مـع رجـالي كـما أشـاروا عـلي.

دخـل العمـلاق يسـوق البهـم إلى داخـل الكهـف. ثـم سـد البـاب بصخـرة كبـيرة لا يسـتطيع مئـة رجـل منـا أن يزيلوهـا. ثـم حلـب القطيـع وأوقـد نـارًا فرآنـا. وصرخ بمـلء فيـه:

«مـن أنتم أيها الغرباء؟»

فقلت في خوف:

«نحـن أبطـال اليونـان: حاربنـا في طـروادة وانتصرنـا ولما رجعنـا، هبـت ريـح عاصفـة ألقتنـا عـلى سـاحل هـذه الجزيـرة. فجئنـا نطلـب منـك المسـاعدة»

فقال حانقًا:

«إنـك لأحمـق أيهـا الغريـب. أتطلـب منـي المسـاعدة؟ ويـل لـك ولأصحابـك، قـل أيـن تركتـم سـفينتكم؟»

خطر ببالي أنه أراد أن يحطم سـفينتنا فقلت:

«حطمت الرياح سـفينتنا يا سـيدي، وألقت حطامها في البحر»

العملاق

صمت عندئذ، ومد يده الطويلة إلينا. فارتجفت قلوبنا حين تناول اثنين منا وأخذ يمزقهما ويلقي بقطعهما في جوفه. ثم شرب أوعية الحليب الكبيرة ونام.

حيلة

نام العملاق على جلود الماعز الكثيفة. وخطر ببالي أن أغمد سيفي في صدره ولكنني خفت أن نحبس طول العمر في ذلك الكهف الرهيب، إذ لا نستطيع أن نفتح الباب.

وفي الصباح التالي نهض العملاق وأكل منا رجلين آخرين. ثم فتح وأخرج القطيع ليرعى وأقفله مرة ثانية.

أخذت عصا طويلة شحذت طرفها حتى صارت حادة كسن الدبوس. وقلت لأصحابي:

«عندما ينام العملاق، سوف أحرق رأس هذه العصا في النار. وبعدئذ سأحرق عين العملاق».

ولكن أصحابي لم يجيبوا. إذ كانت وجوههم شاحبة تعلوها صفرة الموت. فقد أيقنوا أن العملاق سيفتك بهم.

سمعنا ضجة كبيرة، عندما رجع العملاق إلى الكهف. فتح الباب وأدخل القطيع، وبعد أن حلبه أشعل نارًا. ثم تناول اثنين منا وأكلهما ونحن

ننظـر إليـه في خـوف، وبعـد أن شرب كميـة كبـيرة مـن الحليـب اسـتلقي عـلى فراشـه لينـام. وفي تلـك اللحظـة تشـجعت وبـدأت أنفـذ حيلتـي.

الخلاص

اقتربـت من العملاق وقلت:

«معنـا يـا سـيدي زق مملـوء بالخمـر الشـهي. فهـل تقبـل منـي هـذه الكميـة؟ ذقـه، فهـو مـن أجـود أنـواع الخمـر»

فأخـذ الـزق وصـار يمـلأ مـن الخمـر كأسـه ويفرغهـا في جوفـه. ولم يكـد يـشرب نصـف القربـة حتـى صـار يترنـح كالطفـل الضعيـف. وسـألني عندئـذ عـن اسـمي فقلـت:

«اسمي لارجل».

فقال:

«سـتكون أنت آخر من سآكله»

ثـم استسـلم لنـوم عميـق وشـخيره يـدوي في جنبـات الكهـف. فأتيـت بالعصا وأحميتهـا في النـار. ثـم اقتربـت مـن العمـلاق، وغمسـت رأسـها الملتهـب في عينـه. وفي الحـال ابتعـدت عنـه.

أفـاق مـن نومـه كالمجنـون ومـلأ صراخـه الجزيـرة. فـأسرع العمالقـة لنجدتـه. وسـأله أحدهـم:

«مالك تصرخ؟»

فقال:

«لا رجل في الكهف فقأ عيني!» فسـخروا منه وتركوه.

وفي الصبـاح الباكـر فتـح البـاب وتمـدد فيـه. وبـدأ القطيـع يخـرج إلى المرعى. فربطـت أصحـابي إلى بطـون الماعـز كـما ربطـت نفـسي. فخرجنـا جميعًـا ونحـن نشـكر الآلهـة عـلى خلاصنـا.

ولما وصلنا سـفينتا صحت قائلًا:

«أيهـا العملاق المجرم! أنا يوليسـيز. أنا الذي فقأت عينك»

فأمسـك بصخـرة كبـيرة ورماهـا علينـا. فأسرعنـا في السـير حتـى ابتعدنـا عـن الجزيـرة.

حاكم الرياح

هنأنا أصحابنا على سلامتنا. وبكوا على من مات منا. ثم بدأنا نذكر أوطاننا والأمواج تدفعنا إلى حيث لا ندري. قضينا يومًا كاملًا في السفينة.

وبينما كانت الأفكار تملا عقولنا المتعبة، لاحت لنا عن بعد جزيرة خضراء؛ كان منظرها يبعث الأمل في نفوسنا. فالأزهار والأشجار والأطيار ذكرتنا ببلادنا المملوءة بالبساتين. ذكرنا الربيع في سفوح جزيرتنا المحبوبة.

ولما وصلنا الشاطئ لمحنا عن بعد قصرًا فخمًا جميلًا. فتذكرت قصري وزوجتي وولدي. وتسللت من عيني دمعة حزن على فراق وطني. فأسرعت مع أصحابي نحو القصر. فرأينا أيولس[1] حاكم الرياح يستقبلنا أمام القصر.

حدثته عن نفسي وعما وجدت في طريقي وما حدث لنا. فقال:

«خذ يا يوليسيز هذا الكيس المملوء. لا تفتحه مطلقًا. وما دام هذا الكيس معك، سوف تصل إلى بلادك سالمًا».

فودعته شاكرًا وانطلقت مع أصحابي فرحًا إلى السفينة. ففرح رجالي وصاروا يغنون، والشوق يدفعهم إلى بلادهم. فإلى الوطن بعد هذا الغياب الطويل!

---

١ هو إله الرِّياح، وكان يحكم في جزر تقع جهة الشَّمال الشرقيّ من صقلية.

يا للخسارة!

لم يكن هناك شي يعدل سرورنا حين لاحت في الأفق أطراف جزيرتنا في البحر. وكان التعب قد سرى في مفاصلي، فجلست حينًا أفكر فيها صارت إليه حال بلادي من بعدي.

واستسلمت لنوم هادئ، لم يطل. فقد فتحت عيني حين قامت ضجة في السفينة. نظرت حولي فإذا رجالي يلومون أحدهم. فانتفضت مذعورًا وتقدمت إليهم. فعرفت أن الرجل كان قد فتح الكيس ظانا أنه مملوء بالذهب. وتذكرت نصيحة حاكم الرياح لنا. فصحت:

«يا للخسارة!»

لم يقف الأمر عند ذلك الحد. بل بدأ صفير الرياح يصل إلى سمعي منذرًا بشدة العاصفة القادمة. فرفعت يدي نحو السماء وقلت:

«أنقذينا أيتها الآلهة... هل كتب علينا أن نموت في البحر؟ يا ليوليسيز التائه»

وعندئذ شعرت بهزة عاتية. فقد دفعت الرياح السفينة بقوة جبارة. وارتفعت الأمواج حتى حسبناها جبالًا ممتدة في البحر. حاولنا جهدنا أن نتغلب على الأمواج ولكننا لم نفلح.

فرجعنا مرة ثانية إلى جزيرة حاكم الرياح. ولكنه طردنا قائلا:

«الآلهة تكرهكم، ومن غضبت عليه الآلهة لا يستحق المساعدة».

قصر الموت

غادرنا الجزيرة حزينين على فشلنا. ورأينا في رحلتنا أشياء كثيرة أفقدتنا الخوف. فالعالم قد أصبح في أعيننا يستوي حسنه وقبيحه.

وكان أصحابي واجمين لا ينطقون. فقد فقدوا الأمل في الرجوع إلى بلادهم. ومن فقد الأمل يرى الحياة والموت سواء.

وبينما كنت أشجعهم وأقوي من عزائهم، لاحت عن بعد جزيرة صغيرة. ولما وصلناها بعثت ثلاثة من رجالي إلى بناء شامخ فيها فذهبوا ليطلبوا المساعدة من أصحابه.

كنا ننتظر قدومهم بفارغ الصبر. حسبنا صاحب البناء شهمًا كريمًا. ولو عرفنا الحقيقة لولينا هاربين. إذ أكل صاحب القصر وامرأته رجالي الثلاثة. ثم هجما مع رجالهما على سفينتنا وحطموها بعد أن أكلوا من فيها.

وكنت حينئذ جالسًا مع قسم من رجالي على رمال الشاطئ بعيدًا عن السفينة. فاشتد خوفنا. وفي الحال ألقينا بأنفسنا في البحر. ولولا ذلك لمزقونا. فالموت في البحر أخف وطأة من تمزيقنا أحياء.

وبقينا ندافع الأمواج حتى وصلنا ساحل جزيرة أخرى. فألقينا بأنفسنا على الشاطئ لنستريح.

ساحرة تغني

استرحنا على الساحل يومين كاملين. كنا كالسجناء، فالجزيرة لم تزل مجهولة. ولم يكن في مقدورنا أن نغادرها لعدم وجود مركب يحملنا.

قسمت رجالي قسمين. وضعت على القسم الأول قائدًا يأتمرون بأمره. وكنت قائد القسم الآخر. ذهب القسم الأول ليرى الجزيرة وأهلها. وبقي القسم الآخر معي على الساحل في انتظارهم.

رأى أولئك دخانًا متصاعدًا من كهف قريب. وما دنوا منه حتى سمعوا غناء جميلًا. فراقهم ذلك الصوت الرخيم، وصاروا ينادون صاحبه، فخرجت امرأة جميلة وهي تبتسم لهم. وفي الحال أخذتهم معها إلى الكهف. وهناك عرفوا أنها الساحرة سيرس، ذات الصوت الساحر. غير أن القائد لم يدخل الكهف. وبقي ينتظر أصحابه خارجه.

وبعد أن جلس الرجال، قدمت لهم سيرس شرابًا. ثم ضربت كلًا منهم بعصا سحرية، كانت معها. فقلبتهم خنازير في الحال.

ولما طال انتظار القائد أمام الكهف، رجع خائفًا وأخبرني بذلك. فتقلدت سيفي للقاء تلك المرأة.

رسول الآلهة

سرت في طريقي مفكرًا في أمر أصحابي، لقد فقدت عددًا وما زلت أبكيهم. ذكرت الذين أكلهم العملاق

فقدتهم زوجاتهم. وأصبح أولادهم أيتاما لا يتمتعون بحنان الأبوة. وفجأة، أعترض طريقي هرمز رسول

الآلهة. عرفته حين حياني قائلًا:

«كيف أنت يا يوليسيز؟»

فقلت:

«ومن أعلم منك بحالي؟»

فقال:

«أيها الشقي احذر سيرس الساحرة. لقد سحرت رجالك فصاروا خنازير. خذ هذا الغصن الأسود. لن تستطيع سيرس أن تسحرك. فإذا ضربتك بعصاها السحرية، سل سيفك، وهددها بالقتل»

ثم اختفى هرمز وتركني وحيدًا.

دنوت من الكهف فرحًا. ودخلته كالمنتصر على عدوه. فوقفت سيرس وحيتني تحية لطيفة. وقدمت لي كأسًا من الشراب. ولم أكد أتم شربه

حتى ضربتني بالعصا. فرفعت سيفي وهددتها بالقتل. فاهتز جسمها خوفًا وصاحت:

«من أنت؟ كيف لا يؤثر سحري فيك؟ فقلت ساخرًا: سأقتلك أيتها الماكرة. أين رجالي؟»

وعندئذ رمت بنفسها على قدمي تستعطفني. وفي الحال ذهبت معها إلى حظيرة الخنازير، وهناك تمتمت بكلمات سحرية، فانقلب الخنازير إلى رجال. فسلمت على أصحابي وعفوت عن سيرس فقدمت لنا مائدة أكلنا ما عليها حتى شبعنا.

الرحيل

أكلنا في جو يسوده المرح. ذكرنا بيوتنا وزوجاتنا. عرفنا عندئذ أن لا شيء يعدل الوطن. وقطع علينا صمتنا صوت سيرس الساحرة. قالت:

«من أنت أيها البطل؟»

قلت:

«أنا يوليسيز التائه في البحار».

وقصصت عليها قصتنا المملوءة بالمخاطرات. فوعدت بأن تساعدنا في بناء مركب متين.

نزلنا إلى الشاطئ. حيث بنينا مركبًا ضخمًا. وشددنا قطعه بالحبال المتينة. وهكذا استأنفنا مسيرنا في ذلك البحر الواسع بعد أن ودعنا الساحرة. وكانت الريح هادئة والجو صحوًا. وسار المركب جهة الشمال، ثم إلى الغرب.

ظهرت لنا بعد جزيرة خضراء يانعة. فتذكرت أن الجزيرة مأوى الأخوات المغنيات. كان كل من يسمع أصواتهن ينزل الجزيرة ويقيم فيها. إذ أن غناءهن ساحر ينسي المرة بلاده.

عندئذ طلبت من البحارة أن يضعوا شمعًا في آذانهم لئلا يسمعوا الغناء، فوضعوا. وطلبت منهم أن يربطوني بالحبال لأنني لم أضع شمعًا في أذني. فقد صممت على أن أسمع غناءهن. وأوصيتهم أن يمسكوني إذا حاولت تقطيع الحبال.

أغنية النسيان

عندما اقتربنا من الشاطئ رأتنا الأخوات. فنزلن إلى الشاطئ. وارتفعت أصواتهن بالغناء. كان غناؤهن ساحرًا حقًا. لم أكد أسمعه حتى فقدت وعي. فقد نسيت أهلي ومن حولي. وسمعت هذه الأغنية:

تعال أيها البطل الشهير

اقترب يا يوليسيز العظيم

ألا تسـمع أغانينا الساحرة؟

لقد حطمت أسوار طروادة،

فهل تقدر على الهرب؟

دع عنـك البحار الهائجة

صوتنا يسـحر من يسمعه،

فما يخرج من شـفاهنا جميل

ينـسي المرء أهله وصحبه،

فهو من أغاني النسـيان.

مـا سـمعت في حيـاتي مثـل تلـك الأغـاني. وحدثنـي أصحـابي حـين ابتعدنـا عـن الشـاطئ، كيـف حاولـت الهـرب منهـم. وحدثـت أصحـابي عـن تلـك الأغـاني السـاحرة وشـوقي لسـماعها مـرة أخـرى.

ذات الرؤوس الستة

بقينا سائرين حتى وصلنا مضيقًا صغيرًا.. ولكن مياهه كانت في اضطراب دائم فعاودنا الخوف من الساحرات والعمالقة. ثم ارتفعت موجة كالجبل يعلوها دخان قاتم. فخاف أصحابي، وتركوا مجاديفهم وأبوا أن يتقدموا خطوة إلى الأمام. فوقفت أشجعهم قائلًا:

«أيها الأبطال، نجونا من جميع مخاطراتنا، هيا ادخلوا المضيق. تذكروا أنكم من نسل الأبطال الخالدين. اذكروا أوطانكم وأولادكم وزوجاتكم. إلى الأمام!»

فتشجعوا وقبضوا على مجاديفهم وقلوبهم تضطرب من شدة الخوف. وما راعنا إلا خروج الجنية ذات الرؤوس الستة المخيفة، فصاح البحارة وهم يدفعون المركب بكل قواهم وعندئذ صرخت الجنية وتناولت ستة من رجالي.

ما أشد رعب تلك الساعة! رأينا إخواننا في أفواه الجنية وهم يودعوننا. حاولت أن أنطق فلم أقدر. واغرورقت عيناي بالدموع حزنًا عليهم. وكنا قد ابتعدنا عن المضيق. فنظرت إلى أصحابي فرأيتهم ذاهلين. وكانت وجوههم تنطق بالحزن القاتل. فصلينا جميعًا وشكرنا الآلهة.

كالبسو

مررنا بجزيرة خضراء، كل ما فيها يبتسم للحياة. فالطيور تغرد على الأفنان، والأغصان يداعبها النسيم في رقة ودلال. والزهور تملأ الأرجاء بعطرها الجميل. حقًا لقد كانت تغري الزائر الغريب. فمشيت الهوينا أتجول فيها وأنقل في مفاتنها بصري. وكنت وحيدًا، إذ رفض أصحابي دخول الجزيرة خوفًا من الساحرات والجنيات.

وبينما كنت أمتع ناظري بين تلك الزهور، إذا بشخص يمسك بي من الخلف. ولما نظرت خلفي رأيت الساحرة كالبسو. فسلمت عليها وقلبي يضطرب خوفًا. وفي الحال أخذتني معها إلى بيتها الجميل. جلست أتحدث معها وذكرت بلادي ومخاطراتي. وعبرت لها عن عظيم شوقي لرؤية بلادي. ولكن حديثي لم يعجبها، ورأيتها تهز رأسها في استياء وسخرية. فقد طلبت مني البقاء في جزيرتها. وعرضت علي أن أتزوجها فرفضت ذلك في إباء، مما جعلها تسجنني في بيتها. عندئذ تذكرت أصحابي فجن جنوني. وصرخت ولكن الصراخ لم يجد شيئًا. بقيت سجينًا أتعطش للحرية. فليس هناك من هو أسوأ حالًا من السجين. إنه لا يعرف معنى للطعام، ولا يعرف في سجنه إلا قيدًا قاسيًا. ويشعر بأن الحياة كابوس ثقيل جاثم فوق صدره.

يوليسيز يرفض الخلود

مضى علي زمن وأنا أتحرق شوقًا إلى الفرار من كالبسو. وكنت دائم التفكير في مصيري التعس. أما كالبسو فقد كانت تزورني بين آونة وأخرى. جلست مرة بجانبي وقالت:

«انظر إلى هذه الجنان الخضراء. كيف لا ترضى أن تتزوجني. أنا أجمل النساء. إذا قبلتني زوجة لك، أهب لك الحياة الدائمة. ستظل عندئذ شابًا مدى الدهر. وستتمتع برؤية الشمس وزرقة البحر، ما بقي الكون».

ولكنني رفضت مرة أخرى. ولولا مجيء هرمز رسول الآلهة لما تركتني كالبسو. شاءت الآلهة فأمرت هرمز أن يطلقني من سجني. فلم تخالف الساحرة أوامر الآلهة. غير أنها حزنت أشد الحزن. وصارت تبكي بكاء مرًا. وكان أصحابي قد غادروا الجزيرة حين قطعوا الأمل في رجوعي، فصنعت مركبًا خشبيًا صغيرًا. أخذت مقعدي في وسطه والأمواج تدفعه إلى الداخل.

ولم يمض بعض الوقت حتى انتقمت كالبسو لنفسها مني. فقد أرسلت ريحًا عاصفة سببت هياجًا في البحر. ولطمت الأمواج القارب بشدة وحطمته. وبقيت أسبح في البحر.

ناوسيكا الحسناء

أجهدتني السباحة حتى خارت جميع قواي. وأيقنت عندئذ أن نهايتي قد دنت. فقد حملتني الأمواج وأنا فاقد الوعي. ولم أذكر شيئًا بعد ذلك. غير أني سمعت أصواتا بجانبي. فتحت عيني، فإذا أنا مستلق بقرب مصب نهر. ونظرت إلى يساري، فإذا فتاة جميلة تقف غير بعيدة مني. فظننت أنني في حلم. وحاولت أن أغمض عيني مرة أخرى. غير أني سمعت ضحكة، ففتحت عيني. وأدركت أن البحر قذفني عند مصب ذلك النهر فاتجهت صوب الفتاة الجميلة ذاهلًا. فقالت: «أأنت متجول؟» قلت: «نعم».

ثم حولت بصرها عني إلى فتيات كن يقفن وراءها. وطلبت أن يحضرن لي طعامًا. فأكلت وأنا أنظر إليها متعجبًا.

ثم سألتها عن اسمها، فقالت: «اسمي ناوسيكا».

قلت: «ما اسم هذه؟» قالت: «هذه بلاد الفوكيين وأبي الكينوس ملك عليهم». قلت: «وهل يسمح لي بزيارته؟»

فأشارت بيدها إلى الفتيات، فأحضرن عربة فخمة وقالت ناوسيكا باسمة: «تفضل معنا إلى القصر».

إلى الوطن

ألكينوس الملك يسكن قصرًا من أفخم القصور.

حدثني بلطف وأدب عظيمين. وأكرمني طيلة وجودي في قصره. حاولت بادئ الأمر أن أخفي عنه حقيقة أمري. ولكن حدث أن غنى مغن في قصره عن حرب طروادة.

فتذكرت تلك المدينة. وملأت الدموع عيني. فسألني ألكينوس عن سبب بكائي، فقصصت عليه قصتي من البدء حتى النهاية.

وكانت ابنته ناوسيكا، قد حلمت في تلك الليلة أنها ستجد في الصباح زوجا لها على الشاطئ. والآن، وقد سمعت قصة مخاطراتي العجيبة، تقدمت تطلب من أبيها أن يزوجني إياها. ولما عرفت ما طلبت، تساقطت الدموع على خدي، وطلبت من ألكينوس أن يوصلني إلى وطني. وظللت أستعطفه حتى رق لحالي. وأمر رجاله أن يجهزوا لي سفينة كبيرة. فشكرته من كل قلبي، ووعدته أن أقابل إحسانه بالإحسان.

وطلع الصباح بشمسه المشرقة. وكنت على ظهر السفينة أنظر إلى حياتي الماضية. وبقيت السفينة سائرة تسعة أيام، لاحت في نهايتها شواطئ جزيرتي إثاكا. وتخيلتها فاتحة ذراعيها لتضمني كما يضم الأب ابنه.

القسمُ الثَّاني

الشَّبابُ الذَّاهب

لم يكن يقلقني عندما كنت أقترب ببطء من وطني العزيز، إلا حالتي عندئذ. ولى الشباب بزهوره الباسمة. حقًا، إن زمن الشباب كالربيع الحافل بالبنفسج والنرجس والريحان.

ودعت بلادي وأنا في عنفوان شبابي. مرت سراعًا في مخيلتي تلك الأيام، عندما كان يرهبني الأبطال لشدقي وقوة عضلاتي. نعم، مضت تلك السنون، وها أنا ذا أناجي هذه الحلة البيضاء التي تكسو رأسي.

كنت في بلادي أميرًا غنيًا أتمتع بما يلذ لي من رغبات الحياة، وشاء القدر فتركت بلادي في سبيل هيلين الجميلة. رجعت هيلين أخيرًا، وبقيت وحدي في الجزر النائية. خسرت الشباب، ولكن أراني اعتدت أن أستمع إلى موسيقى الموج الأبدية. لقد أصبحت حياتي أنشودة يتغنى بها الناس في كل جيل.

كنت ساهما عندما صاح أحد البحارة:

«هذه جزيرتكم أيها البطل التائه».

وعندئذ ودعتهم ونزلت. ووقفت أودع السفينة ببصري، حتى اختفت وراء الأمواج.

حائِرٌ

كانت الشمس عندئذ تتوارى خلف الأفق. وبدت حمرة الشفق الوردية تصبغ الفضاء الواسع واختبأت الأطيار في أعشاشها مودعة النهار المنصرم.

تخيلت الناس وهم يرجعون إلى بيوتهم ليستريحوا من عناء النهار بين أولادهم وأهليهم. أما أنا، أمير إثيكا، فما زلت حائرًا أفكر في أين أذهب لأقضي الليل.

كانت ثيابي ممزقة، وشعري طويلًا غير مرتب. وكانت لحيتي كثة. فكيف يعرفني الناس؟ فكرت طويلًا ثم تقدمت ماشيًا نحو نار ظهرت في وسط الظلام الحالك.

كنت عندما اقتربت من النار أقدم رجلا وأؤخر أخرى. وأخيرًا تقدمت خوفًا من البرد اللاذع. فرأيت كوخًا بابه مفتوح. وكان يجلس أمامه شيخ كبير. فسلمت عليه. فدعاني مرحبًا بي إلى الجلوس، فجلست. ثم قال:

«أهلًا وسهلًا. أنت ضيفي هذه الليلة. انتظر حتى أحضر لك طعامًا»

عندئذ عرفته. فهو راع لأغنام القصر. وكدت أفضح نفسي، وأظهر شخصيتي، لولا أن صبرت وانتظرت فرصة أخرى.

الاعتراف بالجميل

أكلت من الطعام حين قدمه، كفايتي. وحمدت الله على ذلك. فقد كان الراعي كريم الخلق دمثا. ثم دخلت كوخه الخشبي، وجلست على جلد فرشه على الأرض. وجلس هو غير بعيد مني. ثم قال:

«من أنت أيها الضيف الكريم؟»

قلت محاولًا إخفاء نفسي:

«أنا أحد المتجولين يا سيدي. موطني جزيرة كريت. وقد حاربت في طروادة مع اليونان. ولما انتهت الحرب، ذهبت إلى مصر. ثم تنقلت من جزيرة إلى أخرى، حتى انتهى السير بي إلى هذه الجزيرة».

فقال باسمًا:

«أرحب بك من كل قلبي أيها الضيف. فعندي يستوي الناس، صغيرهم وكبيرهم. وواجب علينا أن نكرم الضيوف فنطعمهم مما من الإله علينا به».

فقلت شاكرًا:

«بارك الله فيك سيدي. ولكن ماذا تشتغل أنت؟»

قال: «أرعى الأغنام والخنازير والأبقار».

فقلت:

«ولمن هذه الماشية؟»

قال:

«آه يا سيدي! هذه ملك أميرنا يوليسيز. ذهب إلى طروادة ولما يرجع. ألم تسمع به؟ لقد حارب كالأبطال في طروادة».

ثم اغرورقت عيناه بالدموع. فسررت لاعترافه بجميلي، فقد كنت أكرمه دائمًا.

مسكينة يا بنيلوب!

كانت تلك الليلة باردة. فقد بدأت الريح الشمالية تهب بشدة. فغطيت رجلي بطرف من الجلد الذي جلست عليه. وأسندت رأسي إلى جدار الكوخ. ثم قلت:

«ألم يرجع سيدك يوليسيز؟ وهل له أولاد؟» قلت ذلك وأنا أتحرق شوقًا لسماع أخبار زوجتي وولدي. فقال وهو يهز رأسه:

«مسكينة يا بنيلوب! حقًا، إنها لزوجة تعرف الوفاء. بعد أن ذهب زوجها يوليسيز إلى طروادة، حزنت عليه كثيرًا. وحين رجع الجنود،

سألتهم عنه فأخبروها أنه رجع. فبقيت تنتظره سنين وهي تبكي عليه كالأطفال. ولما طال غيابه، ذهب ابنه تيلياخوس ليبحث عنه.».

ثم أخفى وجهه بين يديه، فقلت:

«وماذا تعمل بنيلوب الآن؟»

فقال:

«إنها أشقى امرأة في العالم. فقد فرض عليها أمراء الجزيرة أن تختار أحدهم زوجًا لها. ولكنها رفضت بشدة»

فقلت:

«إنهم يعيشون في قصرها. حقًا إنهم أخساء. ويل لهم إذا رجع سيدي يوليسيز!»

فقلت:

«سيرجع بعد أسابيع. فقد رأيته في جزيرة قريبة».

فنظر إلى عندئذ متعجبًا كأنه لم يصدقني.

الثَّوب المطرَّز

وأكـدت للراعـي أننـي رأيـت يوليسـيز في إحـدى الجـزر القريبـة. فأصغـى لحديثـي واقـترب منـي فقلـت:

«هل هذا آخر ما سـمعته عن بنيلوب؟»

قال وهو يهز رأسه:

«لقـد تجـاسر أحدهـم فهددهـا بطردهـا مـن القـصر. يظهـر أنهـم أجبروهـا عـلى أن تختـار لهـا زوجًـا منهـم».

فقلت باهتمام أكثر:

«وهل تزوجت؟»

فقال:

«اشـترطت عليهـم أن ينتظـروا ريثـما تكمـل تطريـز ثـوب لهـا. ولكنهـا صـارت تشـتغل ليـلًا، ثـم تنقـض مـا اشـتغلته عنـد الصبـاح».

فقلت:

«ألم يكتشـف الأمراء حيلتها؟»

فأجاب:

«فضحت السر خادمات القصر الخائنات. وعندئذ ضيق الأمراء الخناق على بنيلوپ، وأجبروها أن تعين لهم يومًا تختار فيه زوجًا لها من بينهم».

فقلت مستنكرًا:

«وماذا فعل ابنها تيليماخوس؟»

قال:

«لم يزل شابًا صغيرًا لا يقدر على مقاومتهم. فلكل أمير منهم أتباع كثيرون. وكثيرًا ما يسخرون من تيليماخوس»

غضبت كثيرًا عند سماعي حديث الراعي. وطلبت منه أن يسمح لي بالنوم. واستسلمت لأفكاري الهائجة طوال الليل.

تيليماخوس يفتش عن أبيه

صعب على تيليماخوس ابني أن يعيش الأمراء في قصري. وزادت كراهيته لهم، لأنهم يسمرون فيه ليلًا. وود لو استطاع أن يقضي عليهم. ولم يحل دون ذلك إلا صغر سنه.

فذهب الى أمه، وقلبه يكاد يتمزق من شدة الغيظ، وقال:

«أمي العزيزة، أنا لا أطيق صبرًا على هذا الحال. هؤلاء الأمراء لا رادع لهم من أنفسهم. اسمحي لي أن أذهب إلى الجزر القريبة. وهناك أبحث عن أبي. هذا آخر حل لطرد الأمراء»

فتسابقت الدموع إلى عيني أمه الحزينة. كان من الصعب عليها أن تفارق ابنها الوحيد تيليماخوس. وعبثًا حاولت أن تقنع ابنها بضرورة بقائه بجانبها. فهو سلوتها الوحيدة، وأعز ما تملك.

وأصر تيليماخوس على الذهاب. فلم تجد أمه بدا من موافقته على أن يعود بعد مدة قصيرة.

ولما كان ميعاد النوم قد أقترب، فقد خلع الشاب ملابسه واستلقى فوق فراشه. فطبعت أمه قبلة على جبينه وهي تنظر إليه في حزن وقلق.

الوداع

أقبل الصباح باسمًا مشرقًا. وعلت في حديقة القصر زقزقة العصافير، كأنما كانت تنبه تيليماخوس من نومه. وكانت الريح هادئة، والسماء زرقاء صافية. ونفذت أشعة الشمس إلى غرفة تيليماخوس، وغمرته بخيوطها اللامعة. فنهض تيليماخوس في الحال، وارتدى ملابسه، وتقلد سيفه اللامع وقال:

«لا تحزني يا أماه. سأذهب إلى الساحل حيث ينتظرني البحارة. عار علي أن أتقاعد عن مقاومة الأمراء. إنهم لا يكتفون بأخذ أموالنا غصبًا، بل يطمعون في أن تتزوجي أحدهم. ويل لهم إذا رجع أبي، يوليسيز العظيم».

فبكت بنيلوب بكاء حارًا. وعانقت ابنها ودموعها تتساقط على صدرها المكلوم. ثم اتجهت إلى السماء بدعائها. وعندئذ قال تيليماخوس:

«الوداع،الوداع يا أماه!»

وبينما كان تيليماخوس في طريقه إلى الشاطئ، كانت بنيلوب تجلس في النافذة تلاحقه ببصرها. وكانت تهم بلحاقه، لولا أن أقلع المركب وتوارى بين الأمواج المتدافعة.

تيليماخوس وهيلين

عـرج تيليامخـوس في رحلتـه عـلى جـزر كثـيرة، ولكنـه لم يسـمع شـيئًا عـن أبيـه. فواصـل سـيره حتـى رسـا المركـب عـلى شـاطئ المـورة. وهنـاك نـزل البحـارة وتوجهـوا إلى قـصر منيلـوس، زوج هيلـين الجميلـة.

فاسـتقبلهم منيلـوس اسـتقبالًا حسـنًا، وأخذهـم معـه إلى قـصره. فقـد تذكـر فضـل يوليسـيز عليـه. وقـال لتيليماخـوس:

«كيف أبوك الآن؟»

فقال تيليماخوس:

«جئت أسـأل عنه يا سـيدي. نفد صبرنا ونحن ننتظر رجوعه»

فقال:

«نعـم، كان والـدك أشـجع القـواد الذيـن عرفتهـم. أنـا مديـن لـه. وقـد ودعتـه بعـد انتهـاء الحـرب، وشـكرته عـلى ذكائـه وبلائـه في الحـرب. ولا أدري أيـن ذهـب بعـد ذلـك».

فتغـير لـون وجـه تيليماخـوس، وكاد يبـكي لـولا أن تشـجع. وطلـب مـن منيلـوس أن يعـد لـه مكانًـا للنـوم. وخـلال نومـه، رأى في الحلـم أثينـا إلهـة اليونـان. وتذكـر أنهـا طلبـت منـه أن يعـود إلى جزيرتـه.

«ارجـع يـا تيليماخـوس إلى بـلادك، وقـاوم الأمـراء الذيـن يعيثـون فسـادًا في جنبـات القـصر»

فلـما أفـاق مـن نومـه، ذهـب الى منيلـوس وطلـب منـه أن يـأذن لـه بالرجـوع. فقـال منيلـوس:

«لم يمـض عـلى وجـودك عنـدي غـير يـوم واحـد. أتمنـى أن تقـضي عندنـا شـهرًا عـلى الأقـل».

فشـكره تيليماخـوس وشرح لـه الأسـباب التـي تجـبره عـلى أن يكـون في بـلاده بالسرعـة الممكنـة. فوافـق عـلى رجوعـه عـلى أن يتقبـل هديـة مـن زوجتـه هيلـين.

ومـا هـي إلا دقائـق حتـى دخلـت هيلـين ذات الجـمال السـاحر. ونظـرت إلى تيليماخـوس بعينيهـا الزرقاويـن وحيتـه قائلـة:

«أهـلًا وسـهلًا بـك أيهـا الشـاب. هـذا الثـوب الحريـري هديـة منـي لـك. سـلمة لأمـك، وقـل لهـا أن تعطيـك إيـاه عندمـا تتـزوج»

فعـبر لهـا تيليماخـوس عـن عظيـم شـكره. ثـم ودعمهـا وودع زوجهـا. وسـار مـع بحارتـه إلى الشـاطئ.

يوليسيز الشحاذ

كان الراعي يعد لي شرابًا في وعاء صغير. ولكنه وقف فجأة، ونظر إلى الساحل فاسترعى انتباهه مركب تيليماخوس. وبعد برهة، أحضر الشراب وقال:

«رسا مركب على الشاطئ أيها الضيف. لا أعرف لمن ذلك المركب، ولكن سيأتي البحارة، وعندئذ سأعرفهم».

خطرت لي عندئذ فكرة جميلة. كنت إذ ذاك جالسًا فوق جلد. فرفعت بصري وقلت للراعي:

«خطر ببالي أن أذهب إلى المدينة، وهناك سأفعل ما يفعله الشحاذون. وأظن الأمراء كرماء. فما رأيك أيها الراعي؟ سأطلب أن أكون خادمًا لأحدهم».

فابتسم الراعي وقال:

«يظهر أنك لا تعرف عن الأمراء شيئا. لو دخلت بيت أحدهم لخجلت من نفسك يا صاحبي. يعيش الأمراء عيشة إسراف ولهو وترف. وأنت بملابسك هذه لا تصلح أن تكون خادمًا. هل سبق أن رأيت طعامهم وشرابهم؟ الأحسن ألا تجعل من نفسك هدفًا لسخريتهم».

فقلت مصممًا:

«إذن أذهـب وأتجـول كالشـحاذين. وسـأبدأ بقـصر يوليسـيز حيـث يعيـش الأمـراء ويقيمـون الحفـلات ...»

وسـكت فجأة حين سمعت أصوات أناس قادمين.

يوليسيز وابنه

دخـل ابنـي تيليماخـوس الكـوخ. وكنـت جالسًـا أنظـر إليـه في شـوق وحنـان. عرفتـه عندمـا حيـاه الراعـي وقبـل يديـه ورأسـه. وحدثتنـي نفـسي أن أعانقه كـما فعـل الراعـي. ولكنـي كبحـت جـماح نفـسي وأبيـت عليهـا ذلـك. فقـد خفـت أن يفتضـح أمـري. وكان قلبـي شـديد الخفقـان.

ولمـا تركـه الراعي وهو يدعو لـه بالحياة والهناءة نظر إلي قائلًا:

«من أنت أيها السـيد المحترم؟»

قلت:

«متجـول رمـاه القـدر في هـذه الجزيـرة. كريـت وطنـي، وقـد حاربـت في طروادة»

فنظـر إلى لحيتـي ذات الشـعر الكثيـف، وإلى ثيـابي الممزقـة كأنـه يفكـر في صـدق مـا قلـت. وقـال:

«هـل رأيـت أبي يوليسـيز: لقـد حـارب في طـروادة، فهـل سـمعت عنـه شـيئًا»

قلت بهدوء:

«نعـم، رأيتـه يحـارب كالأبطـال في المدينـة، ولـولاه لمـا فتحـت طـروادة. ولمـا انتهـت الحـرب ورجعـت، تهـت في البحـار. وزرت مـصر ثـم غادرتهـا... وفي طريقـي التقيـت بأبيـك في جزيـرة قريبـة ورأيـت معـه أمـوالًا كثيرة. أسـتطيع يـا سـيدي أن أقـص عـلى زوجتـه أخبـارًا كثـيرة عنـه»

وقطـع حديثنـا الراعـي عندمـا طلـب أن يذهـب ليخـبر بنيلـوب برجـوع ابنهـا.

يوليسيز يصبح شابًّا

ذهـب الراعـي وتركنـا في الكـوخ. وكنـت عـلى وشـك أن أكشـف القنـاع عـن نفـسي، ولكننـي انتظـرت الفرصـة

الملائمـة. ونظر إلي تيليماخوس وقال:

«هل تحتاج إلى مساعدة؟»

قلت:

«نعـم. أريـد أن أكـون خادمًـا في قـصرك. ولا أريـد منـك أجـرًا سـوى طعامـي. وهنـاك أسـتطيع أن أخـبر أمـك بمـا أعرفـه عـن والـدك العظيـم».

فقال:

«لا أسـتطيع يـا سـيدي أن أتخـذك خادمًـا لي. لسـت أمينًـا عـلى حياتـك. فالأمـراء الآن أسـياد القـصر الحقيقيـون، يعملـون فيـه كـما تحدثهـم أنفسـهم: يسـتعملون القـوة مـع الخـدم، ولا يحترمـون أحـدًا. يسـيئون لي، ويوجهـون الإهانـات لأمـي مـن غـير سـبب. سـأقدم لـك حاجتـك مـن الطعـام والـشراب. وإذا رجـع أبي، سـوف يعطيـك مـا تشـاء...»

فظهـر الغضب على وجهي وقلت:

«لـو كنـت مكانـك أيهـا الشـاب، لحاربتهـم جميعًـا. فمـن يمـت شريفًـا يخلـد ذكـره. المـوت أفضـل مـن رؤيـة أولئـك الأوغـاد»

وفي تلـك اللحظـة، شـاءت الآلهـة، فتغـيرت ملامـح وجهـي وتبدلـت نظـراتي، وصرت شـابًا كـما لـو كنـت في العشريـن مـن عمـري. ولم يكـد يـراني تيليماخـوس حتـى صرخ قائـلًا:

«مـن أنـت أيهـا الغريـب؟ لقـد خدعتنـي. آه! لسـت متجـولا. قـل لي مـن أنـت.. أأنـت إلـه في زي رجـل؟ أم أنـت سـاحر تريـد أن تزيـد في آلامـي وأحـزاني»

قـال ذلك وهـو يتراجع إلى الوراء في خوف. فقلت بلطف:

«لا تخـف يـا بنـي. هـدىء نفسـك يـا عزيـزي تيليماخـوس. أنـا... أنـا أبـوك. أنـا يوليسـيز. قضيـت عشريـن سـنة في البحـار. قضيـت شـبابي في مجاهـل البحـر. مـا لـك تتراجـع إلى الـوراء؟ تيليماخـوس!»

فقال:

«لسـت أبي يوليسـيز. أنـت سـاحر تريـد أن تقتلنـي. كيـف أصـدق أن شـابًا مثلـك صغـير السـن يمكـن أن يكـون أبًـا لي؟ كيـف تبدلـت حالـك في لحظـات؟»

قلت وأنا أقترب:

«أنـا يوليسـيز أبـوك. لقـد غيرتنـي الآلهـة التـي تقـدر عـلى كل شيء. لا تخـف يـا بنـي»

قلـت ذلـك والدمـع يتدفـق مـن عينـي. ولمـا رأى ذلـك تيليماخـوس، تقـدم مسرعًـا وألقـى بنفسـه في أحضـاني. ثـم شـملنا صمـت عميـق، كأننـا في حلـم.

كتمان الأمر

أتـدري كيـف يـشرق الكـون عندمـا تتبـدد السـحب القاتمـة؟ كذلـك أشرق وجـه تيليماخـوس بعـد ذبـول كاد يذهـب بنضرتـه. وجلـس بجـاني يحدثنـي عـن أمـه المسـكينة بنيلـوب وعـن الأمـراء. فقلـت:

«اذهـب يـا بنـي إلى المدينـة لـتراك أمـك. واحـذر أن يعلـم أحـد، لا تخـبر أمـك عـن وجـودي. يجـب أن يبقـى وجـودي سرًا، حتـى أدبـر خطـة للقضـاء عليهـم. سـآتي إلى القـصر في زي شـحاذ. وسـأطلب مـن الأمـراء أن يتصدقـوا عـلي. لا تظهـر عطفًـا عـلي. لأنهـم سـوف يقضـون عـلي إذا وقفـوا عـلى الحقيقـة»

وبينـما كنـت أتكلـم، كان الراعـي قادمًـا مـن المدينـة، فتغـيرت ملامحـي، وصرت كـما كنـت أولًا. عـدت شـيخًا هدمتـه السـنون. وعندمـا اقـترب

الراعـي بـادره تيليماخـوس قائـلًا:

«هل أخبرت أمي؟»

فقال:

«نعـم. أخبرتهـا يـا سـيدي ولا أسـتطيع أن أصـف لـك مبلـغ سرورهـا لرجوعـك سـالمًا. أمـا الأمـراء، فقـد ازداد غضبهـم منـك، وحقدهـم عليـك»

نهـض عندئـذ تيليماخـوس وأوصى الراعـي أن يدلنـي عـلى المدينـة، لأحصـل عـلى طعامـي مـن النـاس، وطلـب منـه أن يريني القـصر. ثـم ودعنـا وسـيفه اللامـع مشـدود إلى وسـطه.

وفاء ....وقسوة

كنـت أنتظـر بـزوغ الفجـر بفـارغ الصـبر. فلـما انتـشر الضيـاء وغمـر الكـون، نهضـت مسرعًـا. وذهبـت مـع الراعـي إلى المدينـة.

وفي شـارع قريـب مـن قـصري رأيـت كلبـي الأمـين يهجـم عـلي. وصـار يـدور حـولي وهـو يلـوح بذنبـه. ثـم سـقط عـلى الأرض لا حـراك بـه. فحزنـت كثـيرًا لفقـده. وخفـت أن يلاحـظ الراعـي، فسـألته:

«لمن ذلك القصر الفخم يا سـيدي؟»

قال:

«قصر يوليسيز. ولكن يا لسوء الحظ! أصبح الأمراء أسياده الآن».

اقتربنا من القصر فأشار علي الراعي بأن أبقى في الشارع. وقال إنه سيذهب إلى سيدته بنيلوب. وتركني وحيدًا. فصرت أنظر حولي لأرى بلدي العزيز.

وفجأة سمعت أصواتًا آتية من القصر. وكانت أصوات جمهور كبير من الناس. إنها أصوات الأمراء وتابعيهم.

ومرت علي دقائق، مشيت خلالها متجهًا نحو مصدر الصوت، بخطوات بطيئة. وكنت أقلد الشحاذين تقليدًا متقنا. وأخيرًا وجدت نفسي أمام بهو واسع، يمتد مسافة كبيرة إلى الداخل. والتفت إلى داخله، فإذا الأمراء يتحدثون ويضحكون كأنهم في بيوتهم.

وقفت أمامهم كالشحاذ أستجديهم، ونفسي تتقطع من الغضب. ولكنني تدرعت بالصبر وقلت:

«أعطوني مما رزقكم الله. أنا جائع أيها الأمراء العظام...»

فرمقني أحدهم بنظرة ساخرة وقال:

«ومن أنت أيها الشحاذ»

ثم تبعه آخر قائلًا:

«اذهـب إلى الشـيطان أيهـا القـذر. مـن دلـك عـلى هـذا المـكان؟ اذهـب في الحـال فأنـت لا تسـتحق الرحمـة»

لكننـي وقفت وحدقت بصري فيـه. فرفع مقعدًا كان بجانبه وقال:

«إن لم تذهب في الحال سـأضربك بهذا».

فقلت:

«ولم تضربنـي أيهـا الأمـير! لا تحتقـر غـيرك. أنـت إنسـان وأنـا إنسـان، بـل كنـت أمـيرًا مثلـك. وكان لي خـدم يقومـون عـلى خدمتـي. ولكـن الحـظ عبـس بعـد ابتسـام، فذهبـت أمـوالي أدراج الريـاح. لقـد شـأت الآلهـة أن أمـد يـدي لمـن هـم مثلـك قسـوة»

فقال:

«لـن أتصدق على قذر مثلك»

وسـمعت عندئذ همسًـا في البهو. وسمعت أحدهم يقول ناصحًا:

«لمـاذا تريـد أن تضربـه؟ ربمـا كان هـذا الشـحاذ أحـد آلهتنـا متخفيًـا في زي شـحاذ»

فقلت عندئذ:

«لقد سرقني لصوص البحر أيها الأمير الكريم، وباعوني في بلاد بعيدة. تبًا للزمن الذي دفعني إلى طلب صدقة من ذلك الوقح»

وما كدت أتم كلماتي، حتى ضربني ذلك الأمير بالمقعد. فتلقيت الضربة في ثبات وصبر. وظللت في مكاني كالصخرة لا أتحرك. فأمسك بي الراعي وأبعدني عن البهو. فقلت والغضب قد استولى علي:

«ويل له إذا قاصصته»

يوليسيز وبينلوب

سمع كل من في القصر قصة الأمير القاسي. فغضب ابني تيليماخوس كثيرًا، ولكنه بقي صامتًا كما أوصيته. وسمعت زوجتي بنيلوب خبر إساءة الأمير لي، فساءها ذلك كثيرًا. إذ كيف يساء إلى غريب في قصرها؟ وحدث أن سألت الراعي عني، فحدثها عن أمري، وأخبرها أنني رأيت يوليسيز في جزيرة قريبة. فابتسمت وقالت:

«اذهب وادع الشحاذ إلى القصر»

ثم فكرت قليلًا وقالت:

«قل له إن بنيلوب تريد أن تسمع منك شيئًا عن يوليسيز. وإذا صدقتها القول، فسوف تجد عندها ما يرضيك»

وكنت أتلفت يمنة ويسرة، حين فاجأني الراعي من الخلف قائلًا:

«سيدتي تريد أن تراك. يجب عليك أن تقول الصدق».

ففرحت عندما سمعت ذلك الخبر. إذ سأرى زوجتي بعد غياب طويل. وبعد برهة قلت للراعي:

«قل لسيدتك إني طوع إرادتها. ولكن، تجنبًا لاحتقار الناس لحالي أفضل أن يكون ذهابي ليلًا»

ورجع الراعي وأخبر سيدته. فأوصته أن يحضرني تحت ستار الظلام.

شجاعة

جلست على حجر في الشارع أفكر في طريقة للانتقام من الأمراء. وكان المارة ينظرون إلى فيحولون أبصارهم بسرعة.

حقًا، كنت كالحجر المهمل، ألقي جانبًا فلا يعيره الناس التفاتًا فصرت أشك في نجاح خطتي. لو وقفت في هذه الناحية قبل عشرين سنة لرأيت الناس حولي. ولكني الآن شحاذ يستجدي المارة.

بيد أنه لم يكن لي بد من الصبر، فصبرت. واعتصمت بالجلد. تجاوزت عن إهانة الأمير وهزء الشعب. فالعظام لا يلقون بالا للمظاهر، بل يبتسمون للشدائد. ولا بد أن تمر في حياة العظيم مشاهد مؤلمة.

كنت من حين لآخر أنظر إلى قصري. عشت فيه زمنًا طويلًا. وها أنا ذا الآن أقف أمامه كغريب لا شأن له به. وكم حدثتني نفسي أن أندفع إلى القصر، ولكن...!

لمحت أمامي شحاذًا آخر له مثل ملابسي يسير بخطى سريعة. فقد كان شابًا أصغر مني سنًا. ودلت ملامحه على قوته. فقلت في نفسي:

«سأسير مع هذا الشحاذ إلى البيوت»

ورأيته يتقدم مني وهو ينقل بصره في. ثم قال محتدًا:

«أجئت تنافسني؟ اذهب من هنا أيها القذر»

ثم بدأ يصيح بصوت مرتفع حتى تجمع حولنا خلق كثير.

المبارزة

اعـتراني شـعور بالخجـل عندمـا أبـصرت النـاس حولنـا يرمقوننـا بنظـرات ملؤهـا السـخط والسـخرية. فقلـت للشـحاذ حسـمًا للنـزاع.

«لا أريـد منافسـتك أيهـا الكريـم. أنـا رجـل فقـير وغريـب عـن بـلادي. لا أمنيـة لي سـوى أن أقيـم أَوَدي بمـا أحصـل عليـه مـن قـوت»

فقال مهددًا:

«اترك المكان قبل أن أحطم رأسـك»

فضحـك النـاس عندمـا سـمعوه وصـاروا يحرضونـه عـلى قتـالي. وانـبرى أحـد الأمـراء صائحًـا:

«يجـدر بكـما أن تتبـارزا. ومـن ينتـصر عـلى الآخـر، يصبـح لـه الحـق في أن يطـرد المغلـوب مـن المدينـة»

ونـال هذا الرأي موافقة جميع الأمراء.

كان الشـحاذ شـابًا، فوافـق وهـو يفتخـر بشـجاعته. ولم أجـد بـدا مـن التقـدم فقبلـت مبارزتـه في شيء مـن التذمـر. وسـمعت عندئـذ أميرًا يقـول:

«سـوف نسـمح للمنتصر أن يأكل معنا في القصر»

تظاهـرت بالضعـف، ووقفـت أنتظـر الشـحاذ الشـاب. ومـا هـي إلا لحظـات حتـى أمسـك كل منـا بالآخـر. فرفعتـه بـين ذراعـي وضربتـه ضربـة خفيفـة.

وهـم بالقبـض عـلى حلقـي يجمـع يـده، لـولا أن قبضـت عـلى رأسـه بيـد واحـدة. ثـم أمسـكت بخـصره، وألقيـت بـه عـلى الأرض في شـدة وعنـف. فتدفـق الـدم مـن منخريـه وفمـه. فصفـق النـاس لي، وسـمح لي الأمـراء أن أدخـل القـصر معهـم.

بين الأمراء

جلسـت قريبًـا مـن الأمـراء. وكانـوا ينظـرون إلي متعجبـين مـن قـوة جسـمي. فقـد حسـبوا الشـحاذ الشـاب أقـوى منـي. وأيقنـوا أني مغلـوب لا محالـة.

وقال أحدهم:

«لقد اسـترحنا من شر ذلك الشحاذ الممقوت»

فأجابه آخر:

«بقي هذا الشـحاذ الغريب».

وكان يشـير إلي بيـده. وكنـت في تلـك اللحظـة أتنـاول الطعـام معهـم. ثـم قـال أيضًـا:

«انظـروا إليه، فهـو يأكل كما لو كان أميرًا مثلنا»

فقلت بهدوء:

«كنـت غنيًـا أيهـا السـادة. ربمـا فقـر أحدكـم وذهـب إلى بـلاد بعيـدة، واضطرتـه الظـروف الى مـد يـده للنـاس. لا تحتقـروا إنسـانًا مثلكـم، فالآلهـة تأمركـم أن تحسـنوا معاملـة الفقـراء. فهـي تسـتطيع أن تـذل منكـم مـن تشـاء»

ثـم دفعتني نفسي فقلت:

«سـمعت أن هـذا القـصر هـو قـصر يوليسـيز العظيـم. وكلكـم يـأكل طعامـه. فكيـف تبخلـون بأمـوال غيركـم؟ إذا رجـع يوليسـيز فسـوف يقاصصكـم جميعًـا».

ولم أكد أتم كلامي، حتى نهض أحدهم، وسـيفه في يده وقال:

«اذهـب عنـا إلى الجحيم أيها الوقح. هذا قصرنا»

وكاد يضربنـي لـولا أن منعه الأمراء وحالوا بيني وبينه.

خطة الانتقام

عندما أقبل الليل وأخلد الناس إلى السكون، ترك الأمراء القصر. وذهب كل إلى بيته. فانتهزت تلك الفرصة ومشيت نحو القصر. وكان تيليماخوس جالسًا في البهو عندما دخلت. وتلفت حولي فلم أر أحدًا. فقلت بصوت منخفض:

«دنت ساعة الانتقام من أولئك الأمراء. وعليك أن تحتاط للأمر. فإذا فشلنا - لا قدر الله - فإنهم سيقضون علينا»

فقال:

«وماذا ترى يا أبي؟»

قلت:

«يجب عليك أولًا ألا تفضح الأمر. وعليك، ثانيًا، أن تخبئ أسلحة الأمراء، وأن تعد لي ولك أسلحة كافية. وإذا سألك أمير منهم عن سبب إخفاء الأسلحة، قل له إنك خفت أن يضرب أحدهم الآخر في الليل»

وسكت عندما رأيت إحدى الخادمات آتية، وتركني تيليماخوس في البهو. ولما جاءت الخادمة، اقتربت مني وصاحت:

«اخرج من هنا. لا نأذن لأمثالك أن يدخلوا القصر»

ولم يخلصني من ثورتها إلا زوجتي بنيلوب. سمعت صراخها فردعت الخادمة وقالت:

«أأنت الشحاذ المتجول؟»

قلت:

«نعم يا سيدتي»

فتبعتها كما طلبت مني وجلست بجانب النار. وجلست هي غير بعيدة مني وفي يدها قطعة الصوف تتلهى بغزلها.

يوليسيز وامرأته

توجهت بكليتي إلى زوجتي، وأمعنت النظر في وجهها الشاحب. ألفيته مصفرًا ذابلًا. وقرأت في صفحته آيات الحزن والبؤس. فقد كان ينطق بمعاني الألم والشقاء.

لو عرفتني لابتسمت. إذ كانت أمنيتها الوحيدة أن تراني. وقطع حبل الصمت صوتها. وقد غلبت عليه رنة الحزن:

«من أنت أيها الغريب؟سمعت...»

فقاطعتها قائلًا:

«متجـول يـا سـيدتي، ألقـت بـه الأقـدار في هـذه الجزيـرة. ولـدت في كريـت، وحاربـت في طـروادة».

فاقتربت مني وقالت:

«تكلم الصدق أيها المتجول. هل رأيت زوجي يوليسـيز؟»

وعندئـذ اقتربت قليلًا منها وقلت:

«نعـم يـا سـيدتي. رأيتـه عندمـا حاصرنـا طـروادة. لقـد كان يوليسـيز صديقـي العزيـز. وهـو الـذي ابتكـر حيلـة الحصـان الخشـبي».

فقالت:

«تقـول إنـك رأيتـه، فهـل تسـتطيع أن تذكـر ملابسـه عندمـا ذهـب إلى طـروادة»

فأجبت جواب الواثق من نفسـه:

«كان يلبـس حلـة أرجوانيـة. وكان يرافقـه رجـل آخـر محـدوب الظهـر، أكـبر منـه سـنًا»

فأبـدت اهتمامًـا كبـيرًا بحديثـي. وصـارت الدمـوع تتسـاقط مـن عينيهـا. فشـفقت عليهـا وقلـت:

«سـيأتي زوجـك العظيـم بعـد مـدة لا تتجـاوز الشـهر. فقـد رأيتـه في إحـدى الجـزر القريبـة. يكفيـه فخـرًا يـا سـيدتي أنـه بطـل طـروادة الخالـد. سـتكون حياتـه لحنًـا تغنيـه الأجيـال القادمـة»

فرفعـت رأسـها ونـادت خادمـة لمـا عرفتهـا في الحـال. إذ كانـت تلـك الخادمة تغسـل رجـلي بالمـاء قبـل النوم.

الخادِمَةُ والجرحُ

طلبت بنيلوب من الخادمة أن تعاملني معاملة حسنة وأن تغسل رجلي قبل النوم. وأوصتها أن تحترمني كصديق لزوجها. ونهضت إلى مغسل قريب ومددت رجلي. فلما رأتها الخادمة قالت:

«هناك شبه قوي بين رجليك ورجلي سيدي يوليسيز»

فقلت محاولًا إخفاء نفسي:

«نعم، أنا أشبهه كثيرًا. وكل من رآنا لاحظ ذلك الشبه»

وخفت عندئذ أن تكشف الخادمة عن جرح قديم في ساقي الأيمن. فهي تعرف موضعه. والتفتت عندئذ بنيلوب إلي وقالت:

«أنا لا أمل حديثك أيها الغريب، ولو استمعت له طوال الليل»

وفي تلك اللحظة أمسكت الخادمة بيدها مكان الجرح. وكادت تصرخ لولا أنني وضعت يدي على فمها، ومنعتها من الكلام. ثم قلت:

«لا تفضحي أمري أيتها الخادمة. أنا يوليسيز. انتظري حتى يجئ الصباح. وإذا انتقمت من الأمراء كافأتك بأحسن ما تحبين»

نهضت بعدما وثقت من الخادمة وقلت لبنيلوب:

«إني أشعر بتعب يا سيدتي. هل تسمحين لي بالنوم هنا؟»

فوافقت وأمرت الخادمة أن تعد لي فراشًا مريحًا. ثم حيتني وانصرفت إلى غرفة نومها ودموعها تسيل على خديها.

ليلة في القصر

كان الليل شديد الظلمة. وساد الكون صمت عميق. فحاولت أن أنام فلم أستطع. وظلت عيناي مفتوحتين مدة طويلة ولم أفكر إلا في الانتقام من الأمراء وكنت أثناء التفكير، أتخيل نفسي واقفًا أمام الأمراء أحاربهم بسيفي اللامع. وخفت أن أسقط صريعًا في المعركة. وكان قلبي يخفق بسرعة كما لو كنت حقيقة في معركة حامية الوطيس. وصرت أشجع قلبي قائلًا:

«أيها القلب، تحمل الصعوبات. كنت فيما مضى تتشجع في مواقف أشد خطورة من هذا الموقف. أتذكر يوم أكل العملاق أصحابي؟»

كنت أحدث نفسي عندما ظهر فجأة شبح امرأة فوق رأسي. فالتفت وإذا بها الإلهة منيرفا. فدعوتها أن تساعدني فقالت:

«أنت الآن في قصرك. لا تخف أن تخفق في جهادك العادل. الآلهة ساعدتك في الوصول إلى بيتك سالمًا»

قالت ذلك واختفت.

استرحت قليلا، وانشرح صدري لتشجيع الآلهة لي. وكان النعاس قد أغمض عيني، فاستسلمت للنوم.

معجزة أبولو

لم أدر كم ساعة نمت. فقد وجدت نفسي واقفًا. وكنت متجهًا ببصري إلى السماء. وخاطبت الإله أبولو قائلًا:

«أيها الإله العظيم! لقد شئت أن أصل بلادي بعد مضي عشرين عام. فاستجب لدعائي أيها الإله العظيم. القلق استولى على نفسي، ومصيري في يد القدر. أرني إشارة منك تدل على أن انتصاري على الأمراء محقق. أنا عبدك الشاكر يا إلهي!»

ولم تمض لحظات حتى دوت في الكون صاعقة جبارة، اهتزت لشدتها جنبات القصر. ففرحت كثيرًا وأيقنت أن الإله بجانبي.

وسمعت أصوات الطواحين آتية من القصر. فقد كانت الفتيات يدرن الطواحين لإعداد الخبز للأمراء. وتعبت الفتيات إلا واحدة بقيت تشتغل. ثم أوقفت الطاحون فجأة وصرخت:

«أيها الإله العظيم، أدعوك يا أبولو، سيد السماء أن تنتقم من الأمراء»

فزاد ذلك من سروري واستسلمت للنوم ثانية.

في الصباح

أفقت في الصباح على أصوات الخدم وهمساتهم، فكأن هناك شيئًا جديدًا. كانوا نشيطين في حركاتهم وسيرهم. أتراهم يحتفلون بشيء؟ أحدث شيء هام؟ هكذا صرت أسأل نفسي.

لم أنتظر في القصر، بل خرجت مسرعًا إلى البهو حيث أخذ الأمراء مجالسهم فيه. ورأيت بنيلوب تطل عليهم كأنها تخطب فيهم. فعقدت الدهشة لساني، وتولاني شعور غريب حين سمعت صوت زوجتي:

«أيها الأمراء، لقد أجبرتموني على انتخاب زوج لي من بينكم. ووافقت على ذلك حين وجدت أن ليس في مقدوري أن أقاومكم ولكن، عليكم أن تجربوا حظكم في مسابقة (بطولية) وسوف أقدم نفسي هدية للفائز. فمن يستطيع منكم أن يضرب نشابًا من قوس يوليسيز، على أن تنفذ من خروق هذه الفؤوس تزوجته»

حقًا لقد كانت زوجتي على جانب عظيم من الذكاء. عرفت كيف تضع العراقيل أمام أولئك الأوغاد. ولكنهم قبلوا اقتراحها. وفي الحال جيء بقوسي المحبوبة. فسررت لرؤيتها ووضعها الخادم أمامهم. ثم نظمت الفؤوس. ونادتهم بنيلوب قائلة:

«هيا أيها الأمراء. جربوا حظكم. وأنا في انتظار الفائز»

قوس يوليسيز

اقتربت من الأمراء وهم ينظرون إلى القوس. وكانت زوجتي بنيلوب تراقبهم من مكان بعيد. والتفت إلى أمير تقدم إلى الأمام وقال:

«سأجرب تلك القوس»

أمسك بها ولكنه حاول عبثًا أن يثنيها. وجرب جهده ولكن محاولته أخفقت. فألقى بها جانبًا وهو يقول:

«بلاد اليونان ملأى بالبنات. لا أريد أن أتزوج من بنيلوب»

فتقدم آخر، فكان مصيره كمصير الأول. وهكذا فشل غيرهما من الأمراء. وفي تلك اللحظة أشرت إلى تيليماخوس بعيني. وقصدت بذلك أن اسأله عن الأسلحة. ففهمت من ملامحه أنه مستعد للمعركة.

ثم اقتربت من الراعي وقلت له:

«أيها الخادم الأمين! «

وانتحيت به جانبًا وقلت:

«أنا يوليسيز. استعد للقتال. اذهب وأحضر لك سلاحا»

فتعجب بادىء الأمر. ولكنه عرفني ووعد أن يأتي برفيق آخر. فتقدمت إلى الأمراء وقلت:

«هل تسمحون لي، أيها الأمراء، أن أجرب تلك القوس؟»

فسخروا مني وصار كل منهم يحاول طردي. غير أن تيليماخوس أتى بالقوس مع الخدم قائلًا:

«هذا بيتي. ليس لكم أن تتصرفوا فيه كما تودون. خذ أيها الغريب هذه القوس وجرب قوة عضلاتك»

فتقدمت منه بخطوات جريئة. وكانت بنيلوپ عندئذ قد تركت البهو وذهبت لتستريح في غرفتها. إذ ولى النهار وظهر الشفق في الفضاء مؤذنًا بقدوم الظلام.

فأمسكت بالقوس وصرت ألويها بالتدريج حتى ثنينها. ودرت ببصري إلى حيث كان الأمراء فوجدت الصمت مخيمًا عليهم. وكأنهم خجلو من أنفسهم، فخفضوا من بعد ذلك الكبرياء الجامح.

وكانت موائد الطعام مرتبة في وسط البهو، عليها من صنوف الطعام ما لذ وطاب.

ما أشد هول ساعة الانتقام. أشرت لتيليماخوس ليستعد. وجئت بالنشاب وثبته في مكانه من القوس. وصوبت السهم فإذا به يخترق الفؤوس جميعها. لو كنت في البهو في تلك الساعة لرأيت الأمراء

يصرخون من شدة ذهولهم وعجبهم. فقال أحدهم متظاهرًا بعدم الاكتراث:

«إنه متعود على استعمال تلك القوس»

نعـم! هـي قـوسي المحبوبـة. ولكـن تلـك السـاعة، كانـت أرهـب سـاعة في حيـاتي. فقـد دنـت سـاعة الانتقـام. ورأيـت الراعـي يقـف بجانبـي، وتيليماخـوس ينظـر إلي كأنـه يريـد أن يقـول:

«اضرب يا أبي»

بهو الموت

كان أول عمـل قمـت بـه، هـو إقفـال بـاب البهـو. وبـأسرع مـن لمـح البـصر صوبـت سـهمًا نحـو الأمـير الـذي ضربنـي بالمقعـد، فأرديتـه قتيـلًا. ولم يكـن الأمـراء يتوقعـون أن أفعـل ذلـك.

نهـض أحدهـم، وكاد يهجـم عـلي لـولا أني صوبـت إلى صـدره سـهمًا آخـر. وكان مصـيره المـوت. فـصرخ الأمـراء. وكانـوا يسـتغيثون بالخـدم. وكادت السـهام تنفـذ منـي، فـأشرت إلى تيليماخـوس أطلـب السـلاح. وصحـت عندئـذ:

«أنـا يوليسـيز أيهـا الخونـة الأوغـاد. مـا الـذي جعلكـم تنحطـون إلى هـذه المنزلـة؟ سـوف أقـضي عليكـم جميعًـا»

وصوبـت سـهمًا آخـر إلى أحدهـم، فسـقط عـلى الأرض يتخبـط بدمائـه. أدرك الامـراء أنهـم سـيموتون. فصـار كل منهـم يشـجع الآخـر. وحاولـوا أن يهجمـوا عـلي. فتقـدم ابنـي عندئـذ وأعطـاني سـيفًا حـادًا. وجـاء الراعـي وزميلـه. بقينـا نهاجمهـم حتـى أفنيناهـم عـن آخرهـم بمسـاعدة الآلهـة لنـا. فتنفسـنا الصعـداء وشـكرنا الآلهـة كثـيرًا.

يوليسيز سيد القصر

كان منظـر الدمـاء في البهـو يثـير الخـوف والجـزع. ولكـن مصيرهـم كان عـادلًا. إذ حرمـوا زوجتـي وولـدي مـن التمتـع في غيـابي بالقـصر. بـل تجـاوزوا ذلـك، فجربـوا أن يجـبروا امـرأتي عـلى الـزواج مـن أحدهـم.

وأقبلـت عندئـذ خادمتـي التـي سـبق أن عرفتنـي، فأمرتهـا أن تـأتي بجميـع الخادمـات. وقلـت عندمـا وقفـن أمامـي:

«أنا يوليسـيز سيد القصر»

فعقـدت المفاجأة ألسـنتهن. وصرن ينظرن إلي نظرات ملؤها الخوف.

فقلت بحدة:

«منكـن أسـاءت السـلوك. ولكـن الوقـت لا يسـمح الآن بمحاكمتكـن.. فأسرعـن وانقلـن الجثـث، واغسـلن الدمـاء»

ثـم تركتهـن وأسرعـت إلى غرفـة زوجتـي. لقـد تضاعـف حبـي لهـا. اعتصمـت بالوفـاء، وقامـت الأمـراء مقاومـة جبارة.

كانـت إذ ذاك نائمة. فناديـت عليها. فأفاقت كالمذعورة قائلة:

«مـن هذا؟ ماذا تريد مني»

فقلت بصوت رقيق:

«جاء يوليسيز زوجك يا سيدتي وذبح جميع الأمراء».

ولكنها لم تصدق. وقالت:

«اتركوني نائمة. حلمت أني بجانب يوليسيز»

فشفقت عليها وقلت:

«أفيقي أيتها الزوجة الوفية. ما أنت إلا رمز للوفاء الخالد. أنا يوليسيز. أنا الذي سبب لك كل هذا الشقاء، ضربت للعالم مثلًا في التجوال والبطولة. وضربت أنت للنساء مثلًا عبقريًا للوفاء»

ولكنها لم تصدق. فأقسمت لها أنني لم أخدعها، وطلبت منها أن تسألني ما تشاء، لتتحقق من صدق أقوالي.

فطلبت مني أن أخبرها عن شيء كنت قد بنيته بيدي. وهو مقعد من الحجر بنيته لأجلس فوقه أحيانا. فأخبرتها عنه وعن أشياء كثيرة. فما كادت تسمع حتى ألقت بنفسها بين ذراعي.

ما أسعد ذلك اليوم الذي التقيت فيه مع زوجتي وأصدقائي!

إلى البحار!

صرت الآن شـيخًا أتجـاوز الثمانـين مـن عمـري. قضيـت شـبابي تائهًـا في البحـار الواسـعة. ومـا زالـت أصـوات الأمـواج تـرن في أذني قائلـة:

«يا يوليسـيز، أنسـيت البحر والجزر والقوارب والحبال والبحارة؟»

نعـم، لا أزال أحـن إلى البحـار وموسـيقى المـوج الأبديـة. ولـذا، فقـد صممـت عـلى الرجـوع إلى الجـزر ذات المناظـر المخيفـة.

فجمعـت أصحابي ورجالي وقلت:

«تعالوا أيها الرجال

البحـر يناديكم والأمواج تهيب بكم

فالكون واسع الأرجاء

لقـد صرت جزء من العالم الأزلي

الحياة عزم وجد وعمل»

ألحقـوا بي إلى الجزر النائية

ولئن فقدنا الشباب،

فإننـا لم تفقد الإرادة الجبارة

هـا هو ذا البحر يناديكم

إلى الأمام ... إلى الأمام!

ووداعـا يا إثاكا المحبوبة»

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي